فـجـأةً، وبزعم تنبُّهه إلى الشائعات، امتنع عن الحضـور، ومَنَعَها هي الأخرى وشدّد الرقابةَ عليها.. لكأنّه ما باعني ـ زمناً طويلاً ـ جسدَ امرأته وحصّل الثمنَ نقداً وحالاً.. لكأننا ما كنا ـ جميعاً ـ متواطئين.

وكانت المواجهةُ الدامية، التي تركتْ آثارها على جسدي وملابسي، وجعلتني أقعي على الأرض بجوار ثلاث جثثٍ مسجّاةٍ، أحاول إغماضَ العين، في انتظار مجيء مَنْ يقبض عليّ.

بور سعيد

ختان

علي السعدي

هذا الصَّيْف لي، إنّه دوري. الصيف الماضي كان لأخي إسماعيل، ليس كله، بل بأسبوع كامل... لا، أكثر من أسبوع قضاه في الحجرة مع «بدرية»، بدشداشته البيضاء وطاقيته المطرّزة، ينزعهما كلَّ يوم ويبقى عارياً. رأيته من الرازونة[1]. لم أر بدرية تفعل مثله، كانت تختبئ خلف المخدة طاوية ذراعيْها. انتبه لي مرّة، فرشّني بالماء.

أنا سأبقى أسبوعين لا ألعب إلاّ مع العروس التي سيُحْضرها أهلي. أخي إسماعيل يذهب إلى الحقل مع أبي، وبدرية تساعد أمي وخالتي. أما أنا فألعب مع عروستي ولا ألعب مع الأولاد.

اليوم، الكلّ مهتمّ بي: أبي وأمي وإسماعيل. إسماعيل كان يغمزني بعينه، وهو يقوم بحركة مضحكة بإصبعيْه مقلِّداً أمي وهي تقصّ القماش. أما خالتي أم إسماعيل فجلست صامتة واضعةً يدها على خدها.

أمي أدخلتني الحمام، وفركتْ جسمي بالليفة والصابون، ولم تسمح لي بطرطشة الماء كما أفعل كلَّ مرّة. خرجتُ من الحمام وأنا ألصف نظافة. نشّفتني، وألبستني دشداشتي البيضاء الجديدة، ووضعتْ على رأسي طاقيتي المطرّزة بعد أن مشّطتْ شعري ونظّفتْ أنفي، فصرتُ جاهزاً.

قبل يومين باع أبي أكياس الحنطة وقبض من التاجر نقوداً، أعطى منها للراعي «أبو حسين»، فجلب لنا خروفاً سميناً ولطيفاً... لا مثلَ ذلك الخروف الشرير أبي القرون، الذي جلبه أبي الصيفَ الماضي، فنطحني في إليتي حين حاولتُ التقرُّب منه ومداعبته، فشتمتُه ودعوتُ عليه بالموت. لم أكن خائفاً منه. الخراف لا تعضّ. الشيخ يعقوب يعضّ. أنا لا أحبه. قال إنّ اللّه سيغضب مني. أبي حين غضب من الخروف لأنّه نطحني، ذَبَحَه وقدّم لحمَه للضيوف. فهل سيفعل اللّه بي ذلك؟

كان الضيوف قد جاؤوا لتهنئتنا بزواج أخي إسماعيل الذي يَكْبرني بدستة سنين وأطول مني بمرتين. أنا أيضاً أكلتُ من لحمه. يستأهل! لم ينطح أبي عندما ذبحه، بل اكتفى بالصراخ. هو لا ينطح إلا الصغار، لم أكن أريد ذبحه. الكبار وحدهم يذبحون الخراف التي لا تدافع عن نفسها. لما ضربني إسماعيل صرختُ، لكني ضربتُه بحجر، فصرخ هو أيضاً ولم يضربني ثانيةً لأنّ أبي دافع عني وطرده. لكن الخروف، مَنْ يدافع عنه؟ لو كان له أبٌ لطرد أبي.

اليوم الخميس. أمي مشغولة بإعداد الطعام، والنسوةُ من الجيران والحيّ يملأْن الحوش، منهنّ مَنْ تساعدها ومنهن مَنْ تثرثر. أبي لبس أجمل ثيابه وانشغل بفتل شاربيه. أما الخروف الطيب فصار مقطَّعاً في القدور، تناوشتْه السكاكين، وهذه المرّة ليس انتقاماً لي ـ فهو لم يؤذني بشيء ـ لكنّهم ذبحوه.

توسلتُ إلى أبي ألا يقتله وحلفتُ له: «وحياة اللّه ما نطحني، خروف إسماعيل هو اللي نطحني». لكنّ أبي لم يصغِ إليّ. قال: «هذا مو شغلك». أبي يكره الخراف، وحياة اللّه.

كلُّ ما كان يجري اليوم شبيهٌ بما جرى الصيف الماضي، حين جاؤوا ببدرية ابنة خالي من قريتها البعيدة وأسكنوها في غرفة إسماعيل. ثوبُها أبيض وقامتها هزيلة تكاد لا تتجاوزني بشبرين طولاً. صحيح أنّ الكبار وحدهم يتزوّجون، وست سنين عمرٌ قليل، لكنّ ما همَّ: فالدنيا فيها كلّ عجيب، وقريتُنا صغيرة، وفوق ذلك، أهلي يَعْرفون أكثر مني وهم فرحون، فلمَ لا أفرح مثلهم؟

لكنّ ما حيّرني أنّ أهلي لم يخصِّصوا لي غرفةً ويملأوها بالأثاث الجديد كما فعلوا لإسماعيل، ولم يخبروني عن اسم العروس ولم يأخذوني معهم إلى بيت أهلها. أبي وحده ذهب إلى بيت الشيخ يعقوب وعاد راضياً يفتل شواربه،

---

١ ـ الرازونه. الكوّة

التي تشبه شواربَ قطتي «قمر». والشيخ يعقوب لا يحبه الأطفالُ، فهو يسبِّب لهم البكاء: يَرْفع ثيابهم ويعضّ «حماماتهم»[1]، لا بأسنانه بل بآلة حادّة. هكذا أخبروني. لكنَّه أيضاً يَحْضر في كلّ عرس فيقول للعروسين كلاماً ما. ويكتب الأسماءَ في دفتره الضخم، ثم يعبّئ كرشه بالطعام، ويقبض نقوداً قبل أن يغادر وهو يقول: «مبروك، مبروك».

لم أصبرْ أكثرَ من ذلك، فسألتُ أمي عن اسم العروس، لكنَّها اكتفت بالابتسام ولم تردّ. دبّروا كل شيء من وراء ظهري. «طيب»، قلت.

شَغَلني الأمرُ، فاستحضرتُ البنات اللواتي أعرفهنّ واحدةً واحدةً، فما استقرّ ذهني إلاّ على «خاتون» جارتِنا بنتِ العطّار «عطا»: فهي أحلاهنّ، لا تفوح منها رائحةُ الروث والسرجين مثل «زينة» بنت القصّاب، ولا عرجاء تَسْحب ثوبها كما تفعل «نارية» بنتُ الأرملة «سعاد» التي تخيفني بنظرتها المقلوبة كلما التقتني.

وخاتون تحبّني كثيراً، تَقْرص خدي حين أقف بباب الدكان، وتدعوني إلى الدخول، فتملأ كفّي بالملبّس والزبيب. وعندما أقف بجانبها يصل رأسي إلى صدرها فأشمّ رائحةً طيبةً، وحين تنشغل أمدّ يدي. «لا، لا، هذا عيب»، تقول أمي، «لا تمدَّ يدَك إلى ما ليس لك». لكنْ ماذا أفعل؟ لا أتمالك نفسي فأنا أحب «الدعابل»[2]، أحبها كثيراً، تلك الكرات الملوَّنة الصغيرة، تَسْحرني خشخشتُها وهي تتقافز في جيبي وأنا أركض فرحاً بعد أن أغلب الكبش أبا الكرش «سبحان» الأشرم، ذلك الولَد الكريهَ الذي ينافسني في اللعب ويَغْلب الجميعَ.

سبحان الأشرم قال لي: «لا تنتظر النجوم، وإلاّ سقطتْ عيناك». الغبيّ، كان ينام قبل أن تظهر، ويريد أن يصعد النخلة ليملأ جيوبه منها. ضحكتُ عليه؛ فهو لا يعرف أنّ النجوم تذهب إلى أمها الشمس لتنام في حضنِها، فتغطيها باللحاف، ولا نعود نراها. لكنَّه سألني: «ولماذا لا تنام في الليل مثلنا»؟ قلت له: «لأنَّ أمها تطفئ القنديل وتذهب إلى الحقل، أما بناتها فيتظاهرن بالنوم، وحين تخرج يخرجن للعب ويقذفن بعضهنّ بالأحجار، وأنتَ تكون نائماً؛ فهنّ لا يلعبن مع الأولاد الأغبياء مثلك».

ـ وهل يلعبن معك أنت؟

ـ أنا؟ لا أدري.

ـ وأين أبوهنّ؟ لِمَ لا يذهب هو؟

ـ ربما هنّ يتيمات.

ـ وأمهنّ الشمسُ، أرملةٌ مثل سعاد؟

ـ طبعاً هي أرملة، وهنّ يتيمات.

ـ وما أدراك؟

ـ ألا ترى كيف يبكين في الشتاء؟

ـ وهل أبوهنّ مات في الشتاء؟

وخاتون لا تبخل عليّ بالواحدة والاثنتين، لكنّ ذلك لا يكفي. فنحن لا نلعب بأقلّ من خمسة، والخمسة بسبعة فلوس: وهذا مبلغ ضخم. لذا أمدّ يدي، وتراني خاتون، فأهرب منها لأعود في اليوم التالي خجلاً وتائباً، وأعاهدها أن لا أعود إلى ذلك ثانيةً، فتسامحني. ولهذا عندما سألْتني عن أخي إسماعيل وماذا فعل مع عروسه في ليلة العرس، لم أخفِ عنها شيئاً، وأجبتُها صراحةً بأنّ الوحش قد ضربها وأسال دمها. نعم، ناولوه منديلاً أبيض وقالوا له. «هيّا يا سبع!»، ثم دفعوه إليها وأغلقوا الباب، وبعد لحظات صرختْ بدرية. فخرج الوحش ملوِّحاً بالمنديل الأبيض

---

١ ـ الحمامة: التسمية الشعبيّة «لعضو» الطفل.

٢ ـ الدعابل: كرات زجاجيّة ملوّنة، وتسمى أيضاً «الجلل».

الملوَّث بالدم، فخوراً بنفسه وكأنَّه قتل خنزير الهور أو دكّ سور عكا ـ مَنْ هي عكا؟ أما المسكينة فكانت تبكي وهي تضع كفَّيْها على وجهها بعد أن طَحَنَ روحها، فلم أتمالك نفسي وبكيتُ أنا أيضاً. كنتُ سأطلب من أبي أن يضربه كما فعل يومَ ضربني، لكنّ الغريب أنّ أبي والضيوف عانقوه مهنِّئين، والنسوة الشريرات أطلقن الزغاريد. حتى أمي وامرأة خالي شاركتا في الأمر رغم أنَّهما مبحوحتان. مسكينة بدرية، ماذا فعلتْ ليفرح الجميعُ لبكائها؟ ألا تحبها أمها وتغضب لها كما غضبتْ أمي يومَ ضربني إسماعيل؟ صحيح أني سمعتُ أبي يقول إنّ البنات يجب ضربُهنّ ـ جارنا أبو حاتم يضرب ابنته فتهرب إلينا وتحتمي بأبي ـ، لكنّ بدرية ما احتمتْ بأحد قبل أن يضربها إسماعيل.

ما لي أنا؟ سأضرب خاتون على أنفها وألوِّث منديلي بدمها مادام ذلك يُسْعد أهلي! لكنْ هل ستسامحني بعدها؟ وهل تعطيني الملبَّس والزبيب؟ ثم كيف سأصل إلى وجهها؟ سأكذب عليها وأطلب منها الانخفاض قليلاً لأوشوشها، وحين تفعل ألكمها، أو أتركها حتى تنام. لا، لا، فأهلي والضيوف لم يتركوا إسماعيل ينتظر لتنام بدرية، وأنف خاتون أكبرُ من قبضتي. مشكلة! لا، الأفضل أن أستعمل «مصيادتي»[1] فهي أقوى، صنعها إسماعيل من شجرة التوت ووضع لها مطّاطاً أحمر وأنا أتمرن عليها دائماً. لذا سأضع فيها حجراً أو «دعبلة » وهوب.. أضربُ خاتون على أنفها كما ضربتُ «حمامةَ» الشيخ وهو يبول.

ـ ماما، أريد منديلاً أبيض.

ـ ماذا تفعل به؟ أنفكَ نظيف.

ـ كلهم يحملون منديلاً أبيض.

ـ طيب يا شاطر، سأعطيك واحداً.

ـ ماما، هل ستفرحون أيضاً لو جاء الحجر بعينها؟

ـ عين مَنْ يا حبيبي؟

ـ عين العروس طبعاً.

ـ وهل ستضربها في عينها؟

ـ كلا، في أنفها، لكنْ ربما أخطأتُ الهدف.

ضحكتْ أمي، لم أرها تضحك هكذا إلاّ يومَ عاد أبي من سفر طويل فطردتني من فراشها لينام هو. وقد رأيتُه يعضُّ رقبتها، ويلعب بشعرها الطويل. وحين رفعتُ رأسي وسألتُه ماذا يفعل بها نهرني قائلاً: «نَمْ أيُّها الشقيّ». فسحبتُ الغطاء فوق رأسي، لكنِّي لم أقدر على النوم حتى نام أبي؛ فأمي كانت تضحك، وهو يزكزكها، وها هي تضحك من جديد على حماقتي. نعم، كيف سأخطئ أنفَ خاتون وقد أصبتُ «حمامة» الشيخ من مسافة تزيد عن عشر خطوات؟ كمنتُ له خلف شجيرة الدفلى وأطلقتُ عليه، فقفز صارخاً وهو يمسك «حمامته» بيديه الاثنتيْن، وأَقْسم أنه سيذبحني «يا ابن الأبالسة» كما وصفني وهو يرغو. ومن يومها لم يعد يبوِّل بجانب الساقية.

عاقبني أبي عندما عرف الحكاية، فكان يضربني وهو يبتسم. صراحةً، لم أشعر بضرباته. أما أمي فأشاحت بوجهها، وأخْفتْ ابتسامتها بطرف شالها، لكنَّها الآن تضحك سافرةً.

وضعوا في صحن الدار مصطبةً خشبيَّةً طويلةً، فوقها فراشٌ قطنيٌّ وطلبوا مني الجلوسَ عليها. كنتُ سعيداً أؤرجح قدميَّ وآكل الحلوى. بعد قليلٍ أتوا بصبييْن أصغرَ مني ويرتديان الثياب نفسها، فأجلسوهما إلى جانبي. كانا يبكيان بحرقة وهما يناديان بصوت واحد: «ماما ـ ماما». ثم أتوا بسبحان الأشرم، كان والده يرفعه من أبطيه وهو يلبط ويحاول التملُّص. يا لهم من صعاليك صغار. البنات وحدهنّ يبكين ليلةَ عرسهنّ. الصبيان لا يبكون، فما بالهم هؤلاء الأغبياء يملأون الحوش بصراخهم؟ أهلهم يريدون تزويجهم غصباً، أهلي طيبون لا يفعلون ذلك بي. فحالما ناداني أبي أتيتُ راكضاً، ولهذا كان الجميع يثني عليّ، يقولون إنِّي شاطر ولا أخاف. وممَ أخاف؟

كان الشيخ يعقوب يحمل حقيبته السوداء الكبيرة، لا تلك الحمراء التي أحضرها يوم إسماعيل. فتحها وأخذ يُخرج منها مشارطَ ومقصاً ودواءً أحمر وضمادات، ثم جلس قبالةَ سبحان الأشرم الذي بطحوه على المصطبة مثبِّتين يديْه وفاتحين فخذيه بعد رفع ثوبه. كان مثلي لا يرتدي لباساً داخلياً. أمسك الشيخ «حمامة» الأشرم وابتدأ القصّ... فنبز الدمُ.. عندها ابتدأ مهرجانُ الصراخ من حناجر أربع...

بيروت (العراق)

---

١ ـ المصيادة: النقّيفة